جامعة الأزهر الشريف
المؤتمر العلمي الدولي الأول
لكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بمدينة السادات

غَيْرِيَّةُ الإمامِ مِنْ خِلَالِ ضَمَائِرِ الكَلَام

تحليل سيميائي لدلالة استعمال الضمير على شخصية فضيلة الإمام أحمد الطيب من خلال وثيقتَي "إعلان الأزهر للسلام" و "إعلان الأزهر للمواطنة و العيش المشترك"

د. رحاب محمد إبراهيم محمد
مدرس الأدب والنقد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
بور سعيد – جامعة الأزهر
البريد الإلكتروني: Rehabmsaied@icloud.com

١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م

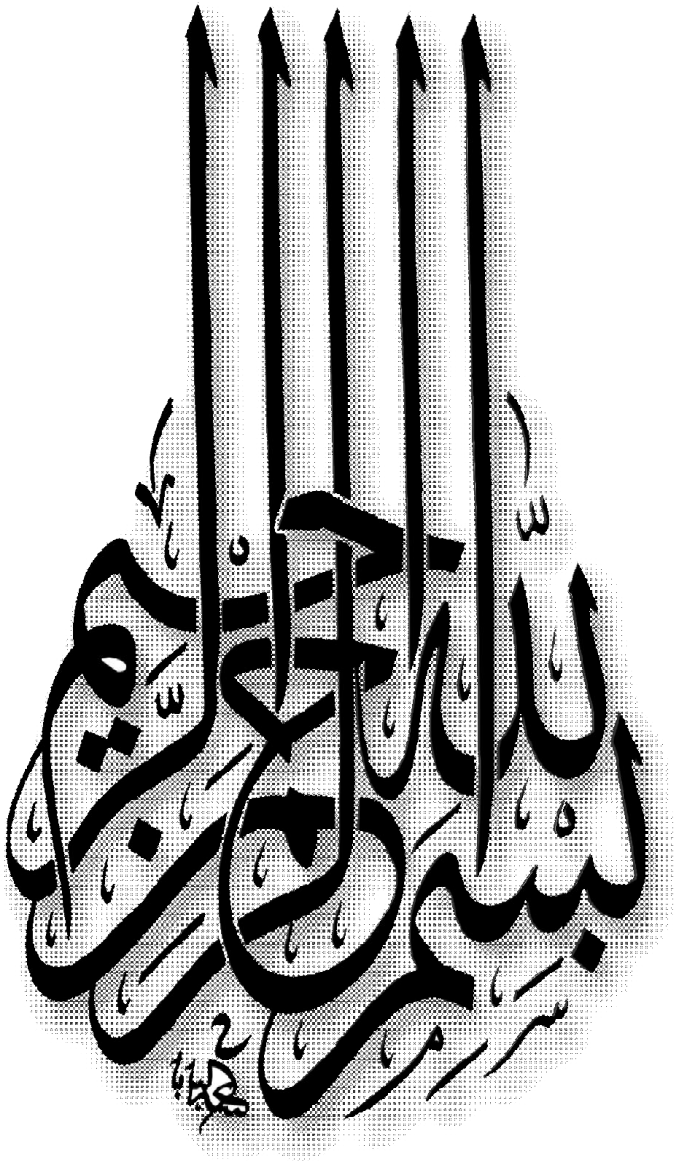
بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

ربما حين قررتُ المشاركة ببحثي هذا في ذلك المؤتمر و من خلال مسحي لجميع الوثائق محل البحث كنت قد وضعت يدي على دالَّين خطيرين على ما استكشفته من **غيرية الإمام أحمد الطيب** أحدهما الضمير و الآخر اسم الإشارة، إلا أنني و مع بداية وضع خطتي البحثية استكشفت أن الأمر سيطول حتى يتعدى حدود البحث التي وضعتها اللجنة الموقرة فقصرت بحثي على الضمير وحده، وقد رأيتُ ذكر هذا الآن في نهاية بحثي عَلَّه يكون ضوءًا لمن يأتي بعدي فيوغل في اسم الإشارة و دوره البارز في تحديد و بلوغ ذات الهدف الذي سعيت إليه.

إن بحثي هذا وقف على دلالة استخدام الضمير في وثائق الأزهر التي خطتها اليد الكريمة لفضيلة شيخ الأزهر أحمد الطيب لما وجدته من قدرة ذلك الاستعمال على إبراز جانب هام من جوانب شخصيته التي تفردت بسمات كثيرة وقفتُ على واحدتها في بحثي.

واستخدمت المنهج السيميائي في محاولة تفسير استعمال الضمير في المركبات الجُمْلِيَّة التي يخطها الشيخ الطيب و دلالته على ذلك المكون الذي ركزت عليه في بحثي ألا وهو **غيرية الإمام** ومن ثم سعيتُ إلى عمل مسح شامل لاستعمالات الضمير في مركباته التعبيرية ، وبرغم اتصاف الضمير بالجمود و الخلو من المعنى الدلالي إلا أن سياقه يأخذه إلى دلالات غاية في الأهمية، خاصةً إذا كان المتكلم هو الشيخ الطيب ، ذلك العالم الجليل الذي مكنته قدراته (النفسفكرتعبيرية) من استعماله بحبك و سبك شديدين وحرص عميق ليحوله إلى علامة أو سيميائية تسقط الضوء على طية من طيات وعيه و ثقافته.

إن المنهج السيميائي – برغم كونه غربيًّا – إلا أنه ليس ببعيد عن العربية بل و كان من المفترض أن يكون منهجًا عربيًّا خالصًا ؛ فاللفظ ذاته في مرجعه لفظ عربي استعمله القرآن الكريم في قوله تعالى "سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ" بذات المعنى الذي أنشئتْ عليه تلك النظرية و التي استخدمت معنى العلامة للتأسيس لعلم

العلامات و من ثم تحوله إلى نظرية تحليلية تقوم بتحليل النصوص و على رأسها النصوص العربية و التي أرى أنها الأولى باستعمال ذلك المنهج الذي خرج من معجمها و نشأ المصطلح في روضتها الشريفة.

أرجو من الله عز و جل أن أكون قد وفقت فيما هدفت له و رميت سهمي عليه.

الكلمات المفتاحية:

غيرية– ضمائر الكلام– السيميائية– إعلان– الوثائق الأزهرية.

Search summary:

Perhaps when I decided to participate in my research in that conference and through my survey of all the documents in question, I had put my hand on two dangerous signs for what I explored from the other of Imam Ahmed al-Tayeb, one conscience and the other the name of the sign, but at the beginning of my research plan I explored that it would be longer until it exceeded the limits of research set by the esteemed committee and limited my research to conscience alone, I have seen the mention of this now at the end of my research may be a light for those who come after me in the name of the signal and its prominent role in identifying and achieving the same goal that I sought.

My research is based on the significance of the use of conscience in the documents of Al-Azhar, which were planned by the generous hand of The Sheikh of Al-Azhar Ahmed al-Tayeb because of the ability of that use to highlight an important aspect of his personality, which was unique to many features that stood on one of them in my research. I used the Semiotic approach in trying to explain the use of conscience in the wholesale compounds that Sheikh Tayeb is planning and its significance to that component that I focused on in my research, namely, the change of imam, and therefore sought to conduct a comprehensive survey of the uses of conscience in his expressive compounds, and despite the purity of conscience with immobility and devoid of semantic meaning, its context takes it to very important connotations. Especially if the speaker is the good Sheikh, that great world whose abilities (self-expression) enabled him to use it with great love and scathing and deep care to turn it into a sign or semiotic that drops the light on the folds of consciousness and culture. The Semiotic approach, although western, is not far from Arabic, but

was supposed to be purely Arabic, and the same term in its reference is an Arabic word used by the Qur'an in the words "Simahm in their faces" in the same sense as that theory, which used the meaning of the mark to establish the science of signs and then turned it into an analytical theory that analyzes the texts, led by Arabic texts, which I see as the first to use it. The approach that came out of its dictionary and the term arose in its honorable kindergarten

I ask God almighty to have succeeded in what I aimed for and threw my arrow at him

:Keywords

Jealousy - Consciences of Speech - Semiotic - Declaration - Al-Azhar Documents.

المقدمة

الحمدُ للهِ المنَّانِ ، و الصلاةُ و السلامُ على نبيّ حقوقِ الإنسان .. أما بعدُ ؛

فمن عَيْنِ الضَّرورةِ و نحنُ في زمنِ الفِتنةِ هذا ؛ حيثُ اختلطتْ الأمورُ و تشابكَتِ المُتَشَابِهاتُ و عَمَّ الاضطرابُ الفكريُّ و العَقَدِيُّ بينَ الناسِ أنْ نلجأَ إلى رجالِ اللهِ نلتفُّ حولَهم و نَتَشَبَّثَ بأناملهم محاولينَ فهمَ الدينِ و التَّدَيُّنِ الواضحينِ من خلال سلوكِهم و أداءاتِهم محاولين إضاءةَ الطريقِ للنَّاسِ بأنَّ ذلك السلوكَ و تلكَ الأداءاتِ هي عينُ الاستقامة، و دلالةُ الاستدامة .

وإنه لَمِنَ الطبيعي أن نلجأَ نحنُ – أربابَ العِلْمِ – إلى نصوص فضيلةِ الأمامِ الأكبرِ الشيخِ أحمد الطيب و أداءاته التعبيرية ؛ نأخذُ منها ما نستقي منه لنستدلَّ على الطريق، والإيمانِ الحقيق .

لذلك فقد اخترتُ تَوَجُّهي البحثيَّ هذا في محاولة الوقوف على سيميائية مدلولِ استعمالِ الضميرِ في متونِ وثائقِ الأزهر والتي خَطَّها فضيلةُ الإمامِ لا لِتُحْفَظَ في الأدراجِ و إنما لتتحوَّلَ إلى منهاجٍ يُسَارُ عليه و درسٍ يُقْتَفى، يعكفُ عليها البُحَّاثُ لاستكناه ما نقتدي به و يقتدي المسلمون ؛ استدلالاً للطريق القويم للتعايشِ الآمِنِ بينَ بني البشر الذين خلقهم الله لعمارةِ هذا الكونِ لا للتَّناحُرِ و التَّدَافُعِ المُضْمِرِ شَرًّا ؛ إذ أرادتْ حكمةُ الله أن نَتَلَوَّنَ و نختلفَ و نتنوَّعَ من أجل تحقيق الغاية الأسمى من خلق الخلق إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ و ما عليها .

إنَّ فضيلةَ الإمام الشيخَ الطَّيِّبَ لهو خيرُ و أصدقُ مَثَلٍ مُعَاصِرٍ نحتذي به في عفوية سلوكه و أدائة مع علمه الغزير و فهمه النمَّير و بَصَرِه القدير ... و من ذلك تكونتْ شخصيته و نمت فكشفت نصوصه عن مكمن تلك الشخصية التي لا تتصرف ولا تسلك إلا عن قناعةٍ وإسلامٍ ركينين جعلاه القدوة و المَثَلَ الأعلى في التعايش مع الآخر و سعيه لبناء مجتمع متوازن دينيًّا و دنيويًّا لنحقق غاية الله في خلقه من العيش في السلام و بلوغ لإيمان التمام .

اطَّلَعْتُ على جميع وثائق الأزهر المطروحة للبحث ووقع اختياري على هاتين الوثيقتين لما لهما من مدلولٍ خطير على أهمية التعايش و احتواء الآخر و هما :

- إعلانُ الأزهرِ العالميُّ للسلام : و المتمثلُ في رسالةٍ مُوَجَّهَةٍ من فضيلة الإمام إلى البابا فرنسيس بابا الفاتيكان في أثناء انعقاد مؤتمر السلام العالمي في مصرَ و ما تضمَّنته من قيمٍ إنسانيةٍ عامةٍ تقفُ على التوازي إلى جانبِ ما نادى به الإسلامُ ؛ محاولةً للتَّكاتُفِ من أجل إنقاذ البشرية المُعَذَّبَةِ و إدراكِ ما حاقَ بها من تدميرٍ و تشريدٍ نتيجةَ تلك الأفكار الظلامية التي حاقَتْ بالعالم و بالجنس البشري اتكاءً على أفكار ليستْ من صحيحِ الدين وهي الأبعدُ عن جَوهَرِ الأديان السماوية التي نادتْ جميعًا بضرورة حماية شعوبِ الجنس البشري وإحلالِ السلام والبعد عن الاقتتال والتَّشريد و التَّخريب الذي عَمَّ المجتمعات نتيجةً للتَّعَادي والصِّراعات .
- إعلانُ الأزهر للمواطنةِ والعَيْشِ المشترك : وما تحمله من مضامينَ لا تبتعدُ عن مضامينِ الوثيقة الأولى .

وفي واقع الأمر لقد رأيتُ تكاملاً بين الوثيقتين فإحداهما مناشدةٌ للمجتمع الخارجي و أخراهما مناشدةٌ للمجتمع المحلي؛ إظهارًا أنَّ الأمر في عينِ فضيلةِ الإمام لَجِدِّيٍّ وهو مَحِلُّ دَرسٍ واهتمامٍ من فضيلتِه حتى يكونَ السلام حقيقيًّا لا مجرد مناشدةٍ إعلامية تنتهي إلى الخواء والعدم .

أهداف البحث:

جاء اختياري للمنهج السيميائي وقوفًا على رمزية الضمير الذي يستعمله فضيلةُ الإمام انطلاقًا من منطلقين :

- الأول : قوة هذا المنهج في الغوص لما وراء اللفظ و المركب بلوغًا لمدلولِه و قدرتِه على تفسير دلالتِه الراسخةِ في ذِهْنِ الإمام و تماسًّا مع المُكَوِّنِ الثقافي والمعرفي والعلمي الذي بُنِيَتْ عليه عقليتُه ومنهجيتُه في التفكير و

السلوك وكذلك تنشئتُه الأخلاقية والتي أَثَّرَتْ و أَثْرَتْ سلوكه و خاصة اللفظي .

- قوة الضمير كدالٍّ على مدلولٍ من خلال جموده كاسم جامدٍ يدل على مُتَكِّلمٍ أو مخاطَبٍ أو غائبٍ و ما يمثله ذلك الجمودُ من احتياجٍ لسياقٍ يعبر عن سيميائيته وما يحمله من إشارات و دلالات رمزية .

لذلك عكفتُ حتى رأيتُ أهدافي التي سعيتُ لبلوغها من خلال وثيقتيّ البحث المختارتين وكذلك بقية الوثائق التي اتَّخَذْتُ منها مادةً لتوثيق ما اهتممتُ بتحقيقه من نتائجَ مَثَّلَتْ لي أهدافي الكامنة من وراءِ ذلك البحث و التي تمثلت في :

- الوقوف على مدى إدراكِ عقليةِ فضيلةِ الإمام لجَوْهَرِ الإسلام الحقيقي في التعايُش السِّلميّ وكذلك الديانات الأُخَرى.
- تقديم الدليل على ما تتمتعُ به شخصيةُ فضيلة الإمام من غَيْرِيَّةٍ[1] وحبِّ الأمن للغير وتحلي شخصيتِه بالإيثار لا الأثرة .
- التدليل على السلوك الفطري لفضيلة الإمام ابتعادًا عن صفة الأنا و محاولة استعراض الذات و قدراتها و تفضيل العمل و السلوك الجمعيين
- الوقوف على مدى اهتمام الإمام و تأكيده على المساواة في الإنسانية بينَ بني البشر جميعًا.
- التأكيد على إدراك وعي الإمام لأهمية السلام في تقدم الجنس البشري و تأمين حياته .

(١)غيرية:مفرد:مصدر صناعي من غير: تفضيل الآخرين على الذات، نوع من السلوك يهتم بمصلحة الآخرين بدلا من الاهتمام بالمصلحة الشخصية، عكس الأنانية(معجم اللغة العربية المعاصرة، أ.د/ أحمد مختار عمر، م١، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٩هـ،٢٠٠٨م، ص١٦٥٦.

محتوى البحث:

عَبَّرتُ أنني سأستخدم المنهج السيميائي في تفسير ظاهرة استعمال الضمير في الوثيقتين المذكورتين مُحَاوِلَةً بلوغ مرماي من تفسير لشخصية فضيلة الإمام الغيرية والتي تسعى دومًا للنظر إلى مُتَطَلَّبَات الغير بعيدًا عن النزعة الذاتية الأَنَوِيَّة ؛ لذلك فقد وجب أن أضعَ في بدء بحثي بعض المفاهيم حول أدوات السيميائية التفسيرية التي سأمسك بها لفك شيفرة تلك الشخصية المتفردة. وسأحقق ذلك من خلال طرح أسئلة محددة أُجِيبُ عنها و ذلك لضيق المساحة المكتوبة في هذا البحث و حتى لا يتسع الأمر لما هو ليس مطلوبًا فيه.

- ما النظرية السيميائية ؟

"السيميائية أو السيميوطيقية عبارة عن نظرية تقوم بتوظيف علم العلامات في دراسة و تحليل أنواع الاتصال والدلالة والمعنى من خلال أنظمة العلامات .

- هل يقتصر التحليل السيميائي على النصوص الأدبية ؟

لا تعمل النظرية السيميائية فقط في المجالات الأدبية واللغوية ، بل في مختلف العلوم وشتى أنواع المعرفة أيضًا .

- متى ظهرت السيميائية ؟ و من روَّادُها ؟

ظهرت السيميائية كنظرية للتحليل على يد عالمين أحدهما (تشارلز س. بيرس) الأمريكي ١٨٣٩ – ١٩١٤ ، و الثاني (فرديناند دي سوسير) السويسري ١٨٥٧ – ١٩١٣ ، و قد قاما بدور الريادة المُبْكِرَة – دون أي اتصال أو معرفة بينهما – حيث عمل كل منهما على تأسيس علم العلامات الذي لا يزال يطرح من القضايا و الإشكالات ما يصعب حسمه بطريقة نهائية .

- هل يقف التحليل السيميائي على نمطٍ ثابتٍ للعلامات كَدَوَالٍّ مُحَدَّدَةٍ لمدلولات ثابتة ؟

إن ما يتصل بنظام اللغة وفقا لأنظمة العلامات يمتد ويتشابك ويتشعَّبُ ليُغَطِّيَ كل الأنشطة السلوكية والفكرية عند الإنسان ، مما دفع الأدباء والنقاد الرمزيين إلى القول بإن الحياة ما هي سوى غابة أو أحراش من الرموز والعلامات تتشعب و تتوغل في جميع أنشطة الحياة .

- ما علاقة السيميائية باللغة ؟

إن اللغة – كما يرى بيرس – هي مجرد كلمات هي في حقيقتها علامات ، لكنها لا تنضوي تحت بند معين أو فئة خاصة أو حتى إلى مجموعة ذات خصائص ثابتة يَسْهُلُ التعرف عليها و التعامل معها"(١).

- ما العلامة التي هي محور النظرية السيميائية ؟

إن العلامة التي تعتبر محور النظرية السيميائية فقد اصطلح على أنها "**شيء**" لابد أن يتم إدراكه حتى يُظْهِرَ شيئًا آخرَ لا يمكن أن يظهر بدونه . أو كما قال (أمبرتو إيكو) في كتابه "البنية الغائبة" : "نَصٌّ يغطي نصًّا آخر" ..

- ما وظيفة العلامة ؟

يقول (ميخائيل باختين) : "إن الأديب عندما يتعامل مع اللغة ، فإن دلالاتها الاجتماعية ذات المستويات والمعالم المركبة تفرض نفسها عليه" (٢) و نستنبط من قول باختين أن الأديب حين يستخدم اللغة كأوعية لمعانيه إنما هو يحمل فيها دلالات اجتماعية وثقافية تعتمل في مُكَوِّنِه الثقافي والمعرفي والاجتماعي ومن ثم تتحول كلماته ومركباته اللغوية إلى علامات أو مرآة كاشفة عن ذلك المكون الاجتماعي والثقافي والمعرفي

(١)انظر موسوعة النظريات الأدبية– نبيل راغب– الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان.ط١، ص٣٦٥

(٢) الماركسية و فلسفة اللغة – باختين – ط لونجمان للنشر و الترجمة، ص ٥١

حين يقف عليها المفسر أوالناقد السيميائي ليبلغ مبلغه من تفسير لشخصيته .

و يكمل باختين : "إن أي اتصال لغوي يتم بين شخصين يحتم أن تكون بينهما لغة مشتركة"(١) ... ثم يؤكد بأن ذلك وحده لا يكفي فلابد من وجود "حديث بينهما له ارتباطاته و خلفياته و دواعيه و تداعياته و قِيَمِهِ العقلية أو الروحية أو التقليدية ؛ أي الخاضعة لعادات و أنماط و تقاليد و سياقات الكلام المتداول حولهما في زمن ما ومكان ما وفئة اجتماعية ما بحيث يلتقي في الحديث بينهما الجانب العام والجانب الخاص ، الشعوري واللاشعوري ، الاجتماعي و الفردي ، الأيديولوجي و النفسي"(٢)

- ما شرط تفسير المتلقي للعلامة ؟

يؤكد (إمبرتو إيكو) في كتابه "البنية الغائبة" أنَّ الرسالةَ التي ينقلُها مُرْسِلٌ إلى مُتَلَقٍّ لا يمكن أن تصلَ إلا إذا كانت قائمة على قواعدَ و دلالاتٍ مُتَعَارَفٍ عليها تجعل العلامة معروفة عند المتلقي ، مما يُحَتِّمُ على الإنسان عند توصيله لشيء يعرفه إلى إنسان آخر لا يعرفه ، سواءً أكان كلمةً أم حركةً أم علامةً مرسومةً أم صوتًا ... إلخ .. أن تقوم هذه العلامة التي ينقلها على قواعد وشفرات تستند إلى اتفاق ثقافي ما ؛ أي نظام لغوي أو غير لغوي" (٣)

- **بم تَتَّسِمُ العلامة ؟**

إن العلامة التي نعتبرها إشارة أو رمزًا لتصور ما عند صاحب الكلام متطورة تتسم بالديناميكية ؛ إذ تُطَوِّعُ نفسَها لنوعية النص محل الدرس و

(١) الماركسية و فلسفة اللغة – باختين – ط لونجمان للنشر و الترجمة ص ٥١

(٢)[نفس المصدر السابق]

(١) البنية الغائبة ، أمبرتو إيكو ، – ط دارالجيل – لبنان، ص ١١٣.

التحليل حيثُ تتعاطى بأدواتٍ نابعةٍ من كل نصٍّ على حدة، بحيث يصبح لنا سيميوطيقا للشعر وأخرى للنثر و ثالثة للقصة بل و تتعدى ذلك للنص المفرد في حد ذاته. وقد ابتكر علماء النقد و تفسير النصوص مناهج متعددة في هذا السياق . فقد أكد (لوتمان) و[١] (ياكوبسون) أن العلامة – في الشعر مثلاً – تحول المستويات الدالة المختلفة كالنحو والصوت ... إلخ إلى أشياء شعرية في حين أنها لم تكن كذلك من قبل ، وكيف أن العلاقة عضوية بين الشعر والنحو، ذلك أن للشعر نحوية خاصة به تنبع منه كما للنحو شعرية تتجاوز قواعد النحو التقليدي.

- **بم يتسم الناقد السيميوطيقي ؟**
- الناقد السيميوطيقي يضع دومًا في اعتباره أن دراسة النص الأدبي هي في حقيقتها عملية جدلية بين النظرية و التطبيق لابد أن يسبقها استيعاب مفردات المعجم و النحو كما تتمثل في قواعد تركيب الوحدات اللغوية واستعمالها(٢).

من هنا و بعدما قرأتُ نصوصَ وثائق الأزهر التي خَطَّتْها اليدُ الشريفةُ لفضيلة الإمام و أمعنتُ النظر فيها جاء اختياري للأداة السيميائية لأؤكد من خلالها مدى تشبع شخصية الإمام بصفة الغيرية و البعد عن النَّعْرَة الذاتية و مع تعمق قراءاتي لتلك النصوص و قيامي بعملية مسح للظواهر اللغوية داخل تلك النصوص عثرت على ضالتي والتي تمثلت في الضمائر التي يستعملها فضيلته وسياقاتها التي أكدت صدق نظرتي في تأكيد تلك الغيرية .

(٢) .....

(٢) انظر المصطلحات الأدبية الحديثة–محمد عناني– الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان–ط٣، ص١٦٠.

- إن وثيقة "إعلان الأزهر العالمي للسلام" و التي استهلَّها فضيلة الإمام بخطاب موجه إلى (البابا فرنسيس) بابا الفاتيكان يقول في مطلعها : "بسم الله الرحمن الرحيم ، الأخُ العزيزُ حضرة البابا / فرنسيس ، بابا الفاتيكان ! السادة الحضور الكريم ! أُحَيِّيْكُمْ بتحية الإسلام ؛ السلامُ عليكم و رحمةُ الله وبركاتُه ، و تحية خالصة من الأزهر الشريف و من مجلس حُكَمَاءِ المسلمين لحضرتكم ، ممزوجة بالشكر لاستجابتكم الكريمة و زيارتكم التاريخية لمصرَ و للأزهرِ الشَّريف ، هذه الزيارة التي تجيءُ في وقتها تلبيةً لنداء الأزهر و للمشاركة في مؤتمره العالمي للسلام ، هذا السلام الضائع الذي تبحث عنه شعوبٌ و بلاد و بؤساء و مرضى و هائمون على وجوههم في الصحراء ، و فارُّون من أوطانهم إلى نائية لا يدرون ! أيبلغونها أم يحول بينهم وبينها الموت و الهلاك و الغرق و الأشلاء و الجثث الملقاة على شواطئ البحار في مأساة إنسانية بالغة الحزن ، لا نعدو الحقيقية لو قلنا : إن التاريخ لم يعرف لها مثيلاً من قبل"

إن تلك المقدمة إن أحصينا عدد كلماتها – المخطوطة الظاهرة دون المضمرة – قد بلغت مائة و تسعًا من الكلمات .. أراد فيها مولانا – فضيلة الإمام – أن يرسل من خلالها رسالة إنسانية تعبر عن مدى مشاركة الأزهر وعلمائه الإنسانية عذاباتها الراهنة التي عانتها ومازالت نتيجة تلك الحروب الآثمة التي أتت على الأخضر و اليابس و لم تُبْقِ و لم تذر حيًّا إلا مَسَّتْهُ و ألحقتْ به الضُّرَّ والضَّرَر معنويًّا نفسيًّا وماديًّا ملموسًا.

و خلال تلك الكلمات المائة و التسع إن تتبعنا ظاهرة استعمال الضمير سنجد الإحصاء التالي :

الجملة	الضمير الوارد فيها	وصفه
أحييكم	أنا – كُمْ	متكلم مستتر – مخاطب متصل بارزحاضر

عليكم	كُمْ	مخاطب متصل بارز حاضر
بركاته	ــه	غائب متصل للمفرد
لحضرتكم	كُمْ	مخاطب متصل بارز حاضر
لاستجابتكم	كُمْ	مخاطب متصل بارز حاضر
زيارتكم	كُمْ	مخاطب متصل بارز حاضر
تجيء	هي	غائب مستتر للمفردة
وقتها	ـها	غائب متصل للمفردة
مؤتمره	ــه	غائب متصل للمفرد
عنه	ــه	غائب متصل للمفرد
وجوههم	ــهم	غائب متصل للجمع
أوطانهم	ــهم	غائب متصل للجمع
لا يدرون	واو الجماعة	بارز متصل للجمع
أيبلغونها	واو الجماعة – ـها الغائبة	متصل بارز للجمع – متصل بارز للمفردة
بينهم	ــهم	غائب بارز متصل للجمع
بينها	ــها	غائب متصل للمفردة
قلنا – نعدو	**نا الفاعلين– نحن "مستتر"**	بارز متصل للمتكلمين – مستتر وجوبا
يعرف	هو	غائب مستتر للمفرد
لها	ــها	بارز متصل غائب للمفردة

و فيما هو آتٍ من تفصيل ذلك سأتَّكِئُ على ما قالته النحاة في استعمالات الضمائر؛ لأن ذلك سيفيدني كثيرًا في تحليل سيميائية تلك الضمائر في دلالتها على ما أسعى للوصول إليه ؛ ألا وهو "غَيْرِيَّة الإمام" في ثوب تواضع الكبرياء لا تخاذل الضعفاء .

و بتطبيقٍ إحصائيٍّ بسيطٍ على تلك المقدمة سنحصل على النتائج الآتية :

نوع الضمير	عدده
متكلم مستتر (أنا) في قوله "أُحَيِّيكم"	مرة واحدة
مخاطب متصل للجمع "كُم" كاف الخطاب في قوله "أحييكم – عليكم – حضرتكم – استجابتكم – زيارتكم"	خمس مرات
مستتر غائب للمفردة "هي" في قوله (تجيء)	مرة واحدة
مستتر للغائب المفرد "هو" في قوله (بركاته – مؤتمره – عنه)	ثلاث مرات
متصل للغائبة المفردة"ـها" في قوله (وقتها – بينها – لها – أيبلغونها)	أربع مرات
متصل غائب للجمع(ـهم) في قوله (وجوههم – أوطانهم – بينهم)	ثلاث مرات
"واو الجماعة" في قوله (لا يدرون – يبلغونها)	مرتان
متصل لجماعة المتكلمين (نا) في قوله (قلنا)	مرة واحدة

ملاحظات :

- لم يستخدم فضيلة الإمام الضمير "أنا" سوى مرة واحدة .
- لم يستخدم الضمير "نحن" سوى مرتين متصلا في صورة "نا الفاعلين" مرة و مستترًا في المسند مرة ثانية في قوله "لا نعدو" .
- ضمير جمع المخاطبين "كم" خمس مرات .

فإذا كان فضيلة الإمام قد استعمل الضمير (أنا) في قوله [أحييكم] مرة واحدة و مستترًا لا بارزًا فإن ذلك دالٌّ على مدلول غاية في الخطورة و الأهمية ، يكشف عن مكون هو الأسمى و الأعلى في شخصيته .

يقول عباس حسن في ذلك "و ينقسم المستتر قسمين : * أولهما : المستتر وجوبًا و هو الذي لا يمكن أن يحل محله اسم ظاهر و لا ضمير منفصل و ذلك باعتبار المستتر فاعلاً لا توكيدًا . * و ثانيهما : المستتر جوازًا و هو الذي يمكن أن يحل محله الاسم الظاهر أو الضمير البارز مثل (الطائر تحرك) و (النهر يتدفق) ؛ إذ يصح أن نقول (الطائر تحرك جناحه) و (النهر يتدفق ماؤه) و المستتر بنوعيه لا يكون إلا مرفوعًا" (١)

لقد رَكَّبَ الإمام جملته على استعمال الضمير "أنا" الذي هو منتهى التعبير عن الذاتية في صورة المستتر الواجب استتاره و كأنه ينكر ذاته في غير تفريط و يُلْجِمُها في غير توريط و قد جعله يتوسط في استتاره بين عامله و مفعوله الذي هو الضمير "كُمْ" المتصل الواقع في محل النصب على المفعولية و الذي يقول فيه (عباس حسن) : "ينقسم الضمير المتصل بحسب مواقعه من الإعراب إلى ثلاثة أنواع : * أولها : نوع يكون في محل الرفع فقط و هو خمسة ضمائر (التاء المتحركة للمتكلم – ألف الاثنين – واو الجماعة – نون النسوة – ياء المخاطبة) . * ثانيها : نوع مشترك بين محل النصب و محل الجر ؛ إذ لا يوجد ضمير متصل خاص بمحل النصب و لا ضمير متصل خاص بمحل الجر و هو ثلاثة ضمائر (يا المتكلم – كاف الخطاب – هاء الغيبة) . * و ثالثها : نوع مشترك بين الثلاثة و هو (نا) ... و مما سبق نعلم أن للرفع ضمائر متصلة تختص به و ليس للنصب وحده أو الجر وحده شيء خاص به" (٢)

إذن ففي جملة (أحييكم) استعمل الإمام ضميرين ؛ الأول (أنا) مستترًا له اختصاص الرفع و ثانيهما "كم" كاف الخطاب و هو لا اختصاص له متأرجحًا بين النصب و الجر ... و كأن الإمام قد حَمَّلَ الضميرين سيميائية غاية في العمق و

(١) النحو الوافي – عباس حسن – دار المعارف بمصر – ط٣ – ص٢٢٨/٢٣٠.

(٢) المرجع السابق– ط٣ ،ص٢٢١ ، ٢٢٢،٢٢٤.

الخطورة ؛ فـ(أنا) المستتر حياءً و تواضعًا و اختصاصه بالفاعلية دلَّ على أنه لا خروج له عن باب الفاعلية التي تسوق الحدث و تحركه إلا أنها لا تُبَاهي بذلك و لا تَفْخَر و (كم) لجمع المخاطبين الواقع موقع المفعولية و الذي لا اختصاصَ له إنما يؤكد أن التحية واقعة مني عليكم – بتواضع – و أنتم المستقبلون لفاعليتي و المتلقون لها أخاطبكم بالجمع تكريمًا و أضعكم بعدم اختصاص ضميركم و تأرجحه بين النصب و الجر موضع التلقي ... إن ذلك لعمري منتهى تواضع الأقوياء و قدرتهم على الإكرام و العطاء في غير تَدَنٍّ و في غير كِبْرٍ .

قد يسألني سائل " و هل كان فضيلة الإمام يقصد ذلك وعيًا ؟ أقول : إن كلام عالِمٍ بحجمه جمع في خبرته الواعية علوم اللغة و فلسفتها و تركيبها لا شك قد انصهرت كل معارفة تلك داخل معينه الفكري حتى أصبحت مكونًا رئيسًا من تفكيره اللاإرادي فأصبحت مركباته الجُمْلِيَّة تأتي عفوية من داخل مُنْصَهَرٍ معرفي متراكم في اللاوعي يحرك دوافعه إلى انتخاب تركيب دون الآخر .

ثم نجد فضيلة الإمام لم يتحدث بضمير الذات – المتكلم – إلا في حالتين أخريين و أتى به بصيغة الجمع حين قال : "لا نعدو الحقيقة لو قلنا" فقد أورد ضمير جماعة المتكلمين مرتين متتاليتين في جملة واحدة ... إن فضيلة الإمام في هذا المركب الواحد أراد أن يقدم معنى تقريريًّا ليؤكد صدق نظرته فيما يذكر فلجأ لضمير الجمع ؛ حيث يؤكدُ كلامُ الجمع و يقرر الحقيقةَ فتكون أحرى بالتصديق من المتلقي ، فقد درج الإنسان على تصديق تجارب الجمع لا المفرد و ذلك سر إيراد الإمام في كلامه الضمير بتلك الصيغة الجمعية و تأكيدًا لذلك جعله غير مختص في صورة "نا الفاعلين" بل يتأرجح بين ثلاثة أوجه إعرابية – كما ذكر عباس حسن في كتابه المذكور – ليدل دلالة لا ريب فيها على قصده إلى التأكيد بالمعنى المجموع لا للتباهي أو التفاخر الذي هو في حاجة إلى الضمير المنفصل المختص بالرفع وحده .. ثم أكد عليه بالضمير المستتر "نحن" استمرارًا لرغبته في الاستتار وراء الحدث و عدم الظهور . ثم جعل كل خطابه للبابا بضمير "كم"

للمخابين الجمع تكريمًا و تفخيمًا تأكيدًا على شدة توقير رأس الإسلام – الإمام – لرأس المسيحية – البابا – تدليلاً على تخلقه بخلق رسول الله صلى الله عليه و سلم حين خاطب "عظيم الروم" و "عظيم مصر" رفعًا لشأنهما و تكريمًا و احتفاءً ، فأراد أن يوضح – و هو لسان حال الإسلام – مدى احترام الإسلام للإنسان و تكريمه بغض النظر عن دينه أو عرقه ..

و نجد الإمام في حديثه عن الشعوب استخدم ضمير الغائب بشتى صوره و هذا منطقي ؛ لأن المتحدث عنهم غير حضور في ذلك المؤتمر .

و سوف أنتقل لعبارة أخرى من تلك الوثيقة لأؤكد على ما ادعيته في بحثي هذا حول سيميائية استعمال الضمير في كلام فضيلة الإمام الأكبر الشيخ أحمد الطيب .

يقول في المقطع التالي :

"و يزالُ العُقَلاءُ و أصحابُ الضمائرِ اليَقِظَة يبحثونَ عن سببٍ مُقْنِعٍ وراء هذه المآسي التي كُتِبَ علينا أن ندفعَ ثمنَها الفادِحَ من أرواحِنا و دمائنا ، فلا يظفرونَ بِسَبَبٍ واحدٍ منطقي يُبَرّرُ هذه الكوارثَ التي أناخت مطاياها بساحاتِ الفقراءِ و اليتامى و الأرامل و المُسِنّينَ ، اللهمَّ إلا سببًا يعدو مقبولاً و معقولاً ألا و هو تجارةُ السلاحِ و تَسْويقِه ، و ضمان تشغيل مصانع الموت ، و الإثراء الفاحش من صفقات مريبة ، تسبقها قراراتٌ دوليةٌ طائشةٌ"

و بذات التطبيق الإحصائي الذي طبقناه على المقطع السابق سنجد الآتي :

نوع الضمير	عدده
ضمير الجماعة الغائبة واو الجماعة في قوله "يبحثون – يظفرون"	مرتان
ضمير جمع المتكلمين نا الفاعلين في قوله "علينا – أرواحنا – دمائنا" و نحن مستترًا في قوله "تدفع"	أربع مرات
ضمير الغائب مؤنثًا و مذكرًا "ه" في قوله "ثمنها – يبرز –	سبع مرات

أناخت – يعدو – هو – تسويقه – تسبقها"	

من خلال هذه المقطع نلاحظ الآتي :

- لم يستخدم الإمام الضمير أنا بأي صورة من صوره .
- استخدم ضمير المتكلمين متصلاً و منفصلاً أربع مرات .
- استعمل ضمير الجماعة الغائبة متصلاً مرتين .
- استعمل ضمير الغائب مذكرًا و مؤنثًا ست مرات .
- استخدم ضمير الغائب المنفصل "هو" مرة واحدة .

هنا نقف على مؤشر دلالي جديد يؤكد لنا شدة وعي الإمام في توظيف الضمائر لخدمة سيميائيته الخاصة التي تكشف لنا عمق تفكيره و انتخابه الألفاظ و المركبات الجُمْلِيَّة بما يحقق تلك الصور المرسومة في خيال فضيلته بغاية الدقة و البيان و تأخذنا إلى أعماق تفكيره لنعلم كيف كان خياله يدور و هو يقدم تلك المركبات .

إن أول ما يطالعنا في ذلك المقطع هو ضمير جماعة الغائبين "واو الجمع" و قد استعمله فضيلته مرتين الأولى في قوله "يبحثون" و الثانية في قوله "يظفرون" و قد استعمله في الحال الأولى ؛ حيث جعله مستعملاً من قِبَل من يبحثون عن أسباب تلك المآسي التي يمر بها الإنسان في عالمنا المعاصر ، و لأنه أراد أن يعبر عما يدور في خلده من حيث صعوبة العثور على الأسباب تلك فجعل الذين يبحثون هم كثرة ليبين مدى المعاناة التي يعانيها الإنسان في البحث عن أسباب ذلك العنف السائد العالمَ في هذا التوقيت ، فبرغم كون الذين يبحثون كثرة إلا أن تلك الأسباب قد تَأَبَّتْ عليهم و عصت و مرد ذلك إلى قناعة فضيلته بأن لا أسباب ظاهرة حقيقية تستحق كل هذا اللهم إلا منافع ذوي المنافع الذين يرون أن في صالحهم إشعال كل تلك الحروب و الفتن و التناحر و سفك الدماء . ثم استخدم ذات الضمير في قوله "يظفرون" مسبوقًا بنفي ليزيد تأكيده على صعوبة منال تلك

الأسباب و أن مجرد العثور عليها يعد ظَفَرًا و غُنْمًا كبيرًا إلا أنه مع كل ذلك استعصى على الذين يبحثون .

إن فضيلة الإمام لا يرى الدنيا بمنظار أسود متشائم برغم كل تلك الأهوال التي يعيشها إنسان الآن فهو يرى أن الباحثين عن خير الإنسانية و سلامها كثيرون عددًا إلا أنهم عاجزون عُدَّةً . و كذلك عند الوقوف على أنواع الضمير كما بينا سالفًا بتوضيح (عباس حسن) في كتابه "النحو الوافي" نجد أن "واو الجماعة" ضمير مختص بالرفع ولا يكون إلا فاعلاً ؛ ليظهر مدى الجهد المبذول من قبل أولئك الباحثين و مدى سعيهم الحثيث للوقوف على الأسباب و من ثم وقف ذلك النزيف البشري.

و بالنظر إلى ذلك المقطع نجد الإمام الطيب قد استعمل ضمير المتكلمين للجمع تارةً متصلاً في صورة "نا" التي هي للفاعلين و تارةً مستترًا في الفعل في صورة الضمير "نحن" فأورده ثلاث مرات متصلاً غير مختص بالرفع و تارة مختصًا به و لكنه مستتر .

إنه يتحدث بلسان المصلحين الباحثين عن حلول لتلك الظواهر غير الصحية و التي تهدد الجنس البشري بالفناء أو الإفناء فجاء بضمير "نا" لجماعة المتكلمين غير مختص ثلاثًا ؛ لتتأرجح سيميائية الضمير بين الرفع و النصب و الجر فجعله في المرات الثلاث في حال الجر و الضمير المجرور ضعيف بنيويًّا يلحق بالمضاف – كما ورد – ليصف دون أن تكون له فاعلية في محتواه التركيبي ، و ذلك ما يؤكد إحساس فضيلته بشدة عجز الباحثين و إعيائهم بحثًا لإيقاف كل ذلك العدوان من الإنسان على أخيه الإنسان و في المرة الواحدة التي جاء به "نحن" صراحة أورده مستترًا ليرسم لنا شعوره بالحياة و الرغبة في الاختفاء – بلسان من يتحدث عنهم – عجزًا و عدم قدرة على إيقاف ذلك النزيف الإنساني و ذلك برغم كونهم باحثين عن الخير ليؤكد مدى انتصار قوى الشر في هذا العالم على قوى الخير نتيجة كل ذلك التعتيم عن الأسباب الحقيقية لقيام تلك النزاعات.

و في بقية المقطع اتجه إلى التحدث بضمير الغائب لسبع مرات عند وصفه لحال الأمم و الشعوب التي ترزح تحت وطأة ذلك العدوان غير المعروفة أسبابه ليدل دلالة لا تقبل الجدل على أن هؤلاء غائبون مغيبون لا حيلة لهم حيث رُبِطَتْ مصائرهم بمصالح مديري تلك الحروب و النزاعات دون أن يكون لهم فاعلية فيها .. لذلك غُيِّبُوا بسيميائية الضمير المعبر عنهم كما غُيِّبُوا في الواقع .

إن الإنسان حين يتقن لسانه أصول العربية حتى يتحول الكلام سلوكًا يوميًّا تصبح حاسة الانتخاب عنده – انتخاب البنى اللفظية – حاسة غاية في الرَّهَف و ذات عمق دلالي في فرز اللفظ دون الآخر ليصبح مبنىً مُحْكَمًا لمعنى مُفْعَمًا محبوكًا قادرًا على تحقيق المدلول من ورائه بإتقان شديد ، كذلك حفظ القرآن و تلاوته و التدبر فيه يصل بحامله إلى استقاء ذلك السبك المتين من المركبات القرآنية المعجزة و التي بلغت الكمال البنيوي لأنه كلام الله و من ثم فالتمرس على تقصي معانيها يأخذ ذلك المتمرس إلى أقصى غايات التوفيق في انتخاب المباني للمعاني – بتلقائية شديدة و دون معاناة – في محاولة الاقتراب من تلك الدقة القرآنية في توليف المعاني بنسج المباني .

و في مقطع ثالث من تلك الوثيقة ينتقل فضيلة الإمام فيه نقلة نوعية في استعمال تقنية الضمير والذي يقول فيه : "و مِمَّا يُثيرُ الإحباطَ أنْ تحدثَ هذه الأزمةُ الحادَّةُ في القرنِ الواحدِ و العشرينَ ، قَرْنِ التَّحَضُّرِ و الرُّقِي و حقوقِ الإنسانِ و التَّقَدُّم العلمي و التِّقْنِي الهائلِ ، و عصر مؤسساتِ السَّلام ومَجَالسِ الأمنِ و تجريمِ استخدام القوةِ و التَّهديد بها في العلاقاتِ الدوليَّة بل عصر المذاهبِ الاجتماعيةِ و الفلسفاتِ الإنسانيةِ و التبشير بالمساواة المُطْلَقَة و مجتمع الطبقة الواحدة و الحداثة اللادينية و ما بعدَ الحداثة إلى آخرِ هذه المُنْجَزَات الاجتماعية و الفلسفية التي تَمَيَّزَ بها عصرُنا الحديث"

استعمل فضيلة الإمام في هذا المقطع تقريباً سِتًّا و ستين كلمة إذا تجاوزنا حروف العطف وقد لاحظتُ أنه يميل إلى الإكثار من استعمال الضمير في الأغلب الأعم

من كلامه من خلال تلك الوثائق و لكن ما أثار دهشتي في ذلك المقطع هو أنه لم يستعمل سوى ضمير واحد بين هذه الكلمات التي شارفت على السبعين كلمة . هنا أخذني السؤال : لماذا لم يستعمل فضيلته أي ضمير في هذا المقطع برغم ميله إلى استعماله في أغلب مركباته التعبيرية ...

إن الضمير يستعمل في الكلام كرمز للمُتَحَدَّثِ عنه يشير إليه – كما عبرتُ سالفًا – حاضرا أو غائبا أو منفصلا أو متصلا أو مختصا أو غير مختص ، و ذلك بحسب ظلاله – المتحدث عنه – في الصور الحركية التي ترسمها المركبات التعبيرية في أذاهننا و كذلك تحمل لنا بسيميائيتها الخاصة تلك الصور الماثلة في ذهن المتكلم إى أن الإمام الطيب قد جَمَّدَ هذا تمامًا في هذا المقطع ؛ فهو في حال عرض تلك الأسباب المحبطة التي دفعته إلى ذلك الشعور ، فكل الأسباب مواتية لتحقيق الأمن و العدل و السلام و المساواة و المؤاخاة بين الشعوب حيث الرقي و التحضر و إعلانات حقوق الإنسان و التقدم العلمي و التقني و انتشار مؤسسات السلام و مجالس الأمن و الحداثة اللادينية و ما بعد الحداثة ، و مع ذلك لم يتحقق الأمن ؛ إذن فالعيب كامن في الإنسان ذاته حيث انتزعت منه الإنسانية و أصبح القوي يأكل الضعيف ، فأراد فضيلة الإمام أن يعبر عن فقد الإنسان لإنسانيته و من ثم فعلامة التعبير عنه في هذا الموقف تنتفي و تختفي لكي لا يدل على وجوده دليل؛ إذ تساوى وجوده مع عدمه لذلك وجدناه في هذا المقطع يزيل كل علامة تعبر عنه سواءً أكان حاضرًا أم غائبًا فهو – و برغم وجوده – غير موجود بافتقاده لإنسانيته نحو أخيه الإنسان .

إن تعبيرات الإمام الطيب غاية في الذكاء ، ذكاء انتخاب اللفظ المعبر عن مدلولات محددة واضحة و ذكاء قوة السبك و إحكامه ، و لولا أنني قد خصصت هذا البحث و قصرته على سيميائية الضمير لتوغلت في أرض خصبة من التعبيرات القوية المعبرة المحبوكة حبكًا شديدًا من جميع أوجه التعبير .

إن تلك الوثيقة المعنونة بـ "إعلان الأزهر العالمي للسلام" لتحمل في طياتها دلالات سيميائية غاية في الخطورة تمثلت بثلاثة مقاطع منها لأقف على خطورة استعمال الضمير داخل المركب الجُمْلي في أسلوب فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أحمد الطيب و لولا ضيق المساحة المحددة للبحث لأفردت مجلدًا كبيرًا لتفصيل القول في الضمائر إلا أنني وجدتُني قد استوفيتُ ما سعيتُ لتحقيقه من خلال تلك المقاطع الثلاث التي استعرضتُها من تلك الوثيقة .

وأما الوثيقة الثانية و المعنونة بعنوان "إعلان الأزهر للمواطنة و العيش المشترك" و قد وقع عليها اختياري – ثانياً – لما تُمَثِّله من خَطَرٍ و أهمية و تكامل مع الوثيقة الأولى في تلك الظروف التي يمر بها مجتمعنا المصري من أحداث لا تكاد تنفصل عن الأحداث العالمية و التي أصابت منطقتنا العربية بتلك الهزات العنيفة التي آلت بكثير من الدول إلى الانهيار و الاضطراب و كادت أن تعصف بمجتمعنا المصري لولا عناية الله ثم قوة جيشنا العظيم و تماسك نسيج هذه الأمة ، لذلك كان من الضروري أن أضمها لوثيقة إعلان السلام العالمي ليمثلا معًا دفتي الجناح للمشكلة الواحدة .

ويستهلها فضيلته بتوجيه تحية مقتضبة لجمهور الحضور ثم يدخل مباشرة في الموضوع دون مقدمات طوال ، أو استعراض مجال . يقول في أولها بعد الافتتاح بسم الله الرحمن الرحيم:

"السلامُ عليكم و رحمةُ اللهِ وبركاتُه .. و بعدُ ؛

السادةُ أعلامُ المِنَصَّةِ ! الحفلُ الكريمُ ! فباسم الأزهرِ الشريفِ ، و باسمِ مَجْلِسِ حُكَمَاءِ المسلمين أُرَحِّبُ بحضراتكم أيتها السيداتُ و السادةُ ! و تُرَحِّبُ بكم مصرُ الكنانةُ ، و تُعربُ معي عن سعادتها بهذا المؤتمرِ البالغِ الأهمية و الذي يُعقَدُ في ظروفٍ استثنائيةٍ و فَتْرَةٍ قاسيةٍ تَمُرُّ بها المنطقة ، بل العالم كلُّه الآنَ ، بعد أن اندلعَتْ نيرانُ الحروب في منطقتنا العربية و الإسلامية دونَ سببٍ معقولٍ أو مُبَرِّرٍ منطقيٍّ واحدٍ يتقبَّلُه إنسانُ القرنِ الواحدِ و العشرينَ .. و من المُدهِشِ ، بل من

المحزنِ و المؤلمِ تصويرُ الدينِ في هذا المشهد البائس و كأنه ضِرَامِ هذه الحروبِ و زُيِّنَ لعقول الناس و أذهانِهم أنَّ الإسلامَ هو أداةُ التدمير التي انقضَّتْ بها جدرانُ مركز التجارة العالمي و فُجِّرَ به مسرحُ الباتا كلان و محطاتُ المترو وسُحِقَتْ بتعاليمه أجسادُ الأبرياء في مدينة نيس و غيرها من مُدُنِ الغرب و الشرق .. إلخ ما نأسى له من هذه الصورِ الكارثيةِ المُرعِبَةِ التي تزداد اتساعًا و قَتَامًا ، مع تنامي التطرُّفِ و تقلُّصِ الحَيِّزِ الصحيح في فهم حقيقة الأديان الإلهية و مغزى رسالات الأنبياء التي تصطدمُ اصطدامًا مدويًا بكل التفسيرات المغشوشة التي تَتَنَكَّبُ بها طريقُ الأديان بل و تُخْطَفُ بها النصوصُ المقدسةُ لتصبح في يد القِلَّةِ المجرمة الخارجة عليها ، و كأنها بندقيةٌ للإيجار لمن يَنْقُدُ الثَّمَنَ المطلوبَ من سماسرة الحروب و تُجَّار الأسلحة و مُنَظِّري فلسفات الاستعمار الجديد"

احتوى ذلك المقطع مائتين و تسعا وعشرين كلمة هي عدد مكونات تراكيبه و إذا أحصينا الضمير المستعمل في محتواه وجدناه قد ورد في حوالي ثلاث عشرة مرة .. و برغم اعتماد فضيلته في الأكثر الأعم من مركباته الجُمْلِيَّة على دلالات الضمير إلا أنه في هذا المقطع قد استعمل ندرة في الضمير ، و مرجع هذا – في ظني – أنه كما نوهتُ من قبل ؛ أنه في قرارة ضميره يستقر أن الإنسان في ذاته مخلوق مدمر جُبِلَ على المعصية مُلْهَمٌ بالفجور قبل المعصية ، و لذلك فهو لا يريد أن يعبر عن إنسانيته التي انتزعها هو بنفسه من نفسه فحاول أن يتحاشاه توبيخًا له و إهمالاً.

و مع ذلك فإن العدد الضئيل من الضمائر التي استعملها فضيلته دلت دلالات سيميائية غاية في الخطورة و الأهمية مما جعل كل الصور الذهنية التي دارت في خلدهأثناء كتابة أو إلقاء تلك الوثائق تصل إلى المتلقي الواعي المدرك بمنتهى الوضوح .

فنجده مثلا في قوله : "أُرَحِّبُ بحضراتكم" مارس رغبته في التخفي في غير صغارٍ و الظهور في غير استكبار ؛ فجعل الضمير المعبر عن "أنا" مستترًا حياءً و

استخفاءً .. و لأنه – فضيلته – لا يمارس ذلك عن ضعف أو وهن فإنه يستعمل ضميرًا مختصًّا بالرفع فقط ليحدَّ حدًّا واضح المعالم دلالة على قوة يقينه .. ثم نجده حين خص الحضور بالضمير جعله ضمير جماعة المخاطبين في قوله "حضراتكم" فاستعمل الضمير للجمع الحاضر لاستحضارهم حين إلقاء الكلام عليهم، ثم جعله ضميرًا غير مختص برفع أو بنصب أو بجر كي لا يحدَّ لهم حدًّا فهم المستمعون جميعًا على اختلاف مشاربهم له وحده صاحب الكلمة .

و الإمام رجل مثقف واعٍ مطلع على بروتوكولات المعاملة بحسب صيحات الغرب بما لا يأخذ من دينه أو يُنقِص منه و لذلك نجده قدم "السيدات" على "السادة" في قوله "أيتها السيدات و السادة" ليلفت انتباه الحضور أن الإسلام ليس بعيدًا عن تكريم المرأة فيقدمها على الرجل عند مخاطبتها إعلاءً لمكانتها و رفعًا من شأنها و كأنه أراد أن يمرر للحضور ذلك المعنى بمنتهى العبقرية و الذكاء تلميحًا لا تصريحًا .

و في قوله "ترحب بكم مصر" ضمير جماعة المخاطبين و ما فيه من شمولية تعني أن مصر ترحب بكل من نزل أرضها زائرًا مسالما لا تفرق بينهم شيئًا و هذا مما يعطي دلالة أن مصر لا عنصرية فيها ولا تفريق بين الأجناس والمعتقدات و قد جعل الضمير غائبًا ليؤكد أن مصر و إن غابت عن الحضور إلا أن أحدًا من أبنائها يمثلها و يتكلم بلسانها و هو فضيلة الإمام . ثم نجد مركبًا غاية في الخطورة أيضا ؛ إذ قدم الضمير "كُمْ" و هو – معنويًّا – الواقع عليه فعل الترحيب – المسند – على المسند إليه – مصر – ليدلل لهم على أهمية تواجدهم و أنه تواجد اهتمام من المضيف لا مجرد تواجد عابر .

ثم يتجه فضيلته إلى تبرئة الإسلام مما هو حاصل في هذا العالم من تدمير و تخريب و إرهاب و محاولة أصحاب النوايا الخبيثة إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام الذي هو براء من كل هذا فيستعمل الضمير في مركب غاية في العبقرية مما أكسب الضمير سيميائية خاصة تجعلها تستقر في ذهن المتلقي دون عناء أو

تفكير حين قال "زُيِّنَ لعقول الناس و أذهانهم أن الإسلام هو أداة التدمير" لقد لعب الضمير هنا دورًا في منتهى الحيوية حين استعمله فضيلة الإمام ؛ إذ جعله ضميرًا مختصًّا بالرفع ، غائبًا ، مسنده مبني للمجهول ... لقد جمع فضيلته ثلاث صفات دلالية بقوة كما وضحت ؛ الاختصاص بالرفع ، الغياب ، و بناء مسنده للمجهول و كأنه أراد أن يوضح بذلك المركب – تلميحًا لا تصريحًا – أيضا إلى ثلاث صفات فيمن يحاول الترويج لهذا الأمر :

- أولها : أنه مستتر لا يستحق أن يُذكَر أو يُهْتَمَّ به .
- ثانيها : اختصاصه بالرفع و الفاعلية للتركيز على سوء ضميره و قبح نواياه .
- ثالثها : أنه مجهول الهوية لا انتماء له لإنسانية أو ضمير .

إن فضيلة الإمام رجل امتلك اللسان الفصيح و البيان الوضيح و من ثم القدرة على الإفصاح و التوضيح دون عناء أو شقاء، فهو في غير حاجة إلى أن يصرح بالمعاني و المدلولات طالما أن مركبه الجُمْلِيَّ يتمتع بالسبك و المتانة و القوة و الرصانة و قدرته على بلوغ مأربه دون استطراد أو إطناب ، بل بمنتهى الإيجاز يستطيع بلوغ هدفه فينتخب المبنى الحامل لما أراد من معنىً فيصيب هدفه دون التفاف أو دوران حول المحور كما يفعل كثير من علماء الآن ؛ إذ يدورون في فلك المعاني و حولها في حيرة من أمرهم غير قادرين على إصابة الهدف بتعبيرات موجزة واضحة جلية ، لذلك فإني أراه يضرب مثلاً رائعًا للعالم المكين القادر على إيصال المراد دون خشونة أو قدح زناد.

- و في المقطع الثاني من ذات الوثيقة يكمل فضيلته قائلا :

"و حسبُك أنْ تُمْعِنَ النَّظَرَ في هذه الشرذمةِ و في أمرها العجيبِ حينَ ترفعُ رايةً واحدةً هي "راية الإسلام" ثُمَّ لا تَلبثُ أن يكرَّ بعضُها على بعضٍ بالتخوينِ و التكفير ، لتعلمَ أنَّ القضيةَ بِرُمَّتِها ليست من الدين لا في كثير و لا قليل ، و أنَّ

المسألة هي توظيف الإسلام في هذه الدماء توظيفات شتى تذهب فيه من النقيض إلى النقيض"

نجد دلالة الضمير أيضًا تحمل سيمائية خاصة قد ارتسمت في ذهن الإمام عند صياغته تلك الوثيقة و هي رغبته الملحة في الكَرِّ على تلك الشرذمة التي تحاول جاهدة إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام ، فقد قرر فضيلته أن يهاجمهم في عقر فكرهم مُفَنِّدًا مزاعمهم و زيفهم في الانتماء للإسلام حتى يُلْبِسُوه ما حاكوه له من تهم الإرهاب و التطرف .

فنجد في قوله "وحسبُك أنْ تُمْعِنَ النظر في هذه الشرذمة" لقد استهلها بـ "كاف المخاطب" و تعمد هذه المرة أن يخاطب بها الواحد لا الجمع .. فلم يقل "فحسبكم" – أيها الحضور – و إنما قال "فحسبك" أنت وحدك .. و تلك دلالة في غاية الخطورة فهو هنا في مقام إفهام و إقناع و تحديده ضمير المخاطب للواحد إنما يجعله أكثر قربًا من كل حاضر في هذه المؤتمر و يأخذه وحده إلى التفكر والتدبر والشعور أنه في حاجة إلى إعمال عقله وحده دون مشاركة مع المجموع ، و أكد ذلك في ستر ضمير المخاطب "أنتَ" في المسند "تُمْعِن" ثم جعله مختصًّا بالرفع على استتاره كدفع لكل حاضر من الحضور إلى التفكير وحده فيما بينه وبين نفسه غائبًا عن الحضور و التفكير الجمعي ليصل وحده و بقناعة تامة إلى الحقيقة التي يلقيها الإمام على الملأ و المتمثلة في حرض هؤلاء الأفاقين على إلصاق كل التهم الإرهابية بالإسلام كمخطط لمحاولة ضرب الإسلام في لُبِّ معتقده .

ثم ينتقل إلى مركب جُمْلِيٍّ آخر محاولاً إظهار زيف تلك الشرذمة و انكشاف أمرها لكل ذي عقل لبيب حين قال : "ثم ترفع راية واحدة هي راية الإسلام ثم لا تلبث أن يكر بعضها على بعض" ... إن استعمال الضمير هنا في هذا المركب قد أوضح شدة التناقض في مواقف هؤلاء و التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك في زيفهم و إفك ما يزعمون .

فقوله "ترفع" بضمير استتر (هي) ثم ذكر الضمير (هي) بارزًا و إردافه بنفس الضمير (هي) في قوله "تلبث" ثم إردافه بذات الضمير و لكنه في هيئة المتصل في قوله "بعضها" .

إنه لأمر عجيب أن يستعمل فضيلته ذات الضمير و لكن بصور شتى متنوعة لتدل كل صورة من صوره دلالة غاية في القوة و تستكمل الصورة الذهنية التي يريد فضيلته إيصالها إلى المتلقي .

ف(ترفع) جعل المسند إليه هي تلك الجماعة الفاسقة التي حاولت أن ترتدي عباءة الدين و شدة حرصها على إلصاق تلك التهم به ثم (هي) ، (راية الإسلام) .. إن الضمير هنا (هي) دال على راية الإسلام فكيف جعل الضير متبوعًا باسمه الظاهر في ذات الجملة ؟ إنه يريد أن يؤكد على قوة هدف تلك الشرذمة و إصرارها و عنادها على إصابة الإسلام في مقتل فهدفهم واضح جليٌّ لا مراء فيه ؛ إنه الإسلام الإسلام و لا شيء سواه فهو المستهدف و المقصود بمنتهى الوضوح . ثم تكرار الضمير و لكن هذه المرة متصلاً في قوله "بعضها" ، و اتصال الضمير إلصاق له بالمُتَّصَلِ به مما يؤكد استماتة تلك الشرذمة على تشويه الإسلام و محاولاتهم الحثيثة على تشويهه .

- و في مقطع ثالث تالٍ لهذا المقطع يقول الإمام :

"وأمرٌ آخرُ يضعُ أيدينا على مَكْمَنِ الزَّيفِ في هذه الدعواتِ الدمويةِ ، هو أنَّ المسألةَ عند أصحابها لم تَكُنْ مسألةَ تصويبٍ لدينٍ زَعَمُوا أنه انفَرَطَ عقدُه ، و أنَّ عليهم تصحيحَه و تصويبَه في إطارٍ من الاجتهاد النَّظَرِي و التَّجديدِ الفِكري ، بل كانَتْ مسألةَ أرواحٍ و إهدارِ دماءٍ كالأنهارِ و اجْتِرَاءٍ على منجزاتِ الإنسانِ و هدمِها حيثما كانَتْ و متى قُدِرَ على تدميرها"

و هذا مقطع آخر من ذات الوثيقة يؤكد منهجية الإمام في توظيف ضمير الكلام لخدمة أفكاره و معتقده و جعله علامة مميزة كدال على مدلول مكونه الفكري و الشخصي و النفسي . و في هذا المقطع يستعمل الضمير بذات المنهجية و يؤكد

ذلك في هذا المقطع قوله : "و أمرٌ آخر يضع أيدينا على مكمن الزيف في هذه الدعوات" ؛ حيث استعمل في هذا المركب ضميرين ؛ أحدهما (هو) المستتر في المسند "يضع" و برغم من ورود اسمه الظاهر قبله إلا أنه قد أعاده متكررًا ليكون دالاً على مدلول عام ليفسح المجال للمتلقي إلى توسيع دائرة التلقي و بيان سيطرة ذلك التفكير عليهم و شيوعه ثم يردفه بضمير جماعة المتكلمين (نا) ليجعل من نفسه جزءًا لا يتجزأ من المتلقين و تلك دلالة هامة على استدراج فضيلته للحضور و جعلهم جزءًا لا يتجزأ من الطرح الذي يطرحه عليهم ، و إنما تتضافر جهود الناس و تجتمع حين يستشعرون أنهم جزء من دراما المعنى المعروض عليهم.

"هو أن المسألة عند أصحابها لم تكن مسألة تصويب لدين زعموا أنه انفرط عقده" في هذا المركب الجُمْلِي يلعب الضمير دورًا هامًّا فاستعماله ضمير الغائب في مبدئه منفصلاً ؛ فتغييبه للتعميم و بروزه لجمع الاهتمام حوله .. ثم ننظر في قوله "لدين زعموا أنه انفرط عقده" فاستخدام ضمير الجمع "واو الجماعة" متصلاً بالفعل زعموا يؤكد على رغبة فضيلته في تجهيلهم و عدم الاكتراث لشأنهم برغم قوة تأثيرهم التي دفعت الكثيرين من العالم الغربي إلى الاقتناع – عمدًا أو عفويًّا – بأن الإسلام دين إرهاب و ترويع للآمنين .. و اتصال الضمير كمسند إليه بالمسند – الفعل – أوجد تلازمًا بين المسند و المسند إليه و كأن الحدث ذاته – الزعم – قد ارتبط بالمُحْدِثِ ارتباطًاً لصيقًاً .

لقد أصررتُ على عدم إكمال التحليل في الوثيقة كلها – أيضًا– لشعوري أنني قد بلغت مأربي في إظهار منهجية فضيلة الإمام (أحمد الطيب) في استعمال الضمير و أن ما بقي من الوثيقة الأولى أو الثانية قد أصبح مكشوفًا للمتلقي مما يجعل التحليل الكامل نوعًا من التزيد و الدوران حول المحور و هذا ما لا أرجوه ؛ إذ يكفيني أن أكون قد بلغت ما أنشده من بحثي هذا .

د. رحاب محمد إبراهيم محمد

مدرس الأدب والنقد–جامعة الأزهر

مراجع البحث:

- البنية الغائبة ، أمبرتو إيكو– ط دارالجيل – لبنان.
- الماركسية و فلسفة اللغة – باختين – ط لونجمان للنشر و الترجمة، ط١ .
- مجموعة وثائق الأزهر الشريف في المؤتمر العالمي للإخوة الإنسانية الذي أقيم بمصر .
- المصطلحات الأدبية الحديثة–محمد عناني– الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان–ط٣.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، أ.د/ أحمد مختار عمر، م١، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٩هـ،٢٠٠٨م.
- موسوعة النظريات الأدبية– نبيل راغب– الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان.ط١.
- النحو الوافي – عباس حسن – جـ١ – ط ٣ .دار المعارف.